صوت المرأة المسلمة

العدد : ١٨٨ الموافق في ذو القعدة ١٤١٧ هجري ٤ / ١٩٩٧ ميلادي

عنوان المقال : جواب الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي	بقلم : صوت المرأة المسلمة

يقولون : المرأة نصف المجتمع. وهذا صحيح بالنظر إلى عدد النساء بالنسبة إلى الرجال ، بل كثيراً ما يزيد عدد النساء على الرجال.

ولكن الواقع يقول : إن المرأة أكثر من النصف من حيث تأثيرها ، فهي تؤثر - إيجاباً أو سلباً - في زوجها ، وفي أولادها ، ولا سيما بناتها.

لهذا عُني الإسلام بها وأنصفها وكرمها : إنساناً وبنتاً وزوجة وأماً وعضواً في المجتمع.

واعتبرها القرآن جزءاً من الرجل ، كما اعتبر الرجل جزءاً منها ، فهي تكمله وهو يكملها ، فليس كلاهما خصماً للآخر ، كما تصوره بعض الفلسفات والأدبيات. وفي هذا يقول القرآن : { **فاستجاب لهم ربهم أنّي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض** }[آل عمران:١٩٥].

وعبر عن ذلك النبي ﷺ فقال : « **إنما النساء شقائق الرجال** ».

❋ ❋ ❋

دور المرأة في إصلاح المجتمع :

ومن أوضح ما جاء في القرآن الكريم في بيان أن المرأة مكلفة بالوظائف الاجتماعية كما كلف بها الرجال : قوله تعالى في سورة التوبة : { **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة...** }[التوبة:٧١].

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد الحديث عن المنافقين والمنافقات ، ودورهم في إفساد المجتمع وتدمير قيمه ، إذ قال تعالى : { **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم...** }[التوبة:٦٧].

فإذا كان المنافقون والمنافقات متشابهين متعاونين في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، كما نرى ذلك ماثلاً للعيان في عصرنا ، من وقوف النساء المتغربات والعلمانيات في صف واحد مع الرجال المتغربين والعلمانيين « **دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها** »... فإن واجب المؤمنين والمؤمنات أن يقفوا لهم بالمرصاد ، وأن يدحضوا أباطيلهم بالحقائق ، وضلالاتهم بهداية الله ، آمرين بالمعروف الذي ضيعوه ، ناهين عن المنكر الذي يسندونه ويدعون إليه.

إن من يقرأ القرآن ويتدبره ، يجد أن للمرأة مكاناً في كل النبوات وفي عامة الرسالات ، ابتداءاً من المرأة الأولى ، زوج أبينا آدم ، التي عرفت باسم حواء... مروراً بأم موسى وأخته ، وامرأة فرعون ، وصولاً إلى أم المسيح عيسى وجدته امرأة عمران.

مكانة المرأة في الدعوة الإسلامية :

ومن قرأ السيرة النبوية لرسولنا العظيم ، وجد أن أول صوت ارتفع بتأييده في دعوته ، كان صوت امرأة ، هي زوجه خديجة رضي الله عنها... وأول دم أريق في سبيل هذا الدين ، كان دم امرأة ، كانت هي أول شهيدة في الإسلام : سمية زوج ياسر وأم عمار ﷺ .

وموقف أسماء ذات النطاقين في الهجرة ، وموقف أم عمارة ، وأم سليم ، وعائشة أم المؤمنين ، وغيرهن في غزوة أحد ، وموقف نساء الصحابة في سائر الغزوات ، وترجمة البخاري في صحيحه : (باب غزو النساء وقتالهن)...

وموقف أم سلمة من الإشارة على رسول الله ﷺ ، وأخذه بمشورتها ، التي كان من ورائها الخير... ومواقف عائشة العلمية والسياسية بعد وفاته ﷺ ، واستدراكها على الصحابة في عدد من المسائل ، حتى ألفت في ذلك الكتب... كل هذا يوضح لنا مكانة المرأة في الدعوة الإسلامية.

وقد عرف تراثنا العربي الإسلامي نساء نبغن في الأدب والشعر ، وفي علوم شتى ، منها علم الحديث ، وعلم الفقه ، برغم العوائق المعروفة في تلك الأعصار.

❋ ❋ ❋

ضياع المرأة بين تياري التشدد والتسيب :

فما الذي غير الحال ، وهوى بالمرأة المسلمة إلى حضيض الجهل والانزواء ، وقصر مهمتها على الإنجاب وخدمة الرجل ، وعزلها عن المجتمع تماماً ؟

إن المسؤول عن ذلك هو سوء فهم الإسلام ، وموقفه من المرأة ، وغلبة الآراء المتشددة ، التي حرمت على المرأة مجرد الذهاب إلى المسجد ، مع أن الحديث المتفق عليه يقول : « **لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**» ومع أن السنة العملية أثبتت أن نساء الصحابة كن يصلين الصلوات الخمس - ومنها العشاء والفجر - في المسجد في حياة النبي ﷺ ، وفي عهود الراشدين من خلفائه.

وقد فشت أحاديث ضعيفة بين المسلمين لا وزن لها حكمت سلوكهم تجاه المرأة ، مثل حديث : أي شيء أصلح للمرأة يا رسول الله ؟ قال : " ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل " ! وهو حديث ضعيف جداً.

ومثل الحديث المكذوب " لا تعلموهن الكتابة " أو " شاوروهن وخالفوهن "... الخ ، ومثل الحديث الضعيف المشهور " أفعمياوان أنتما ؟ ".

وقد ضاعت المرأة المسلمة بين تيارين : تيار التقاليد الراكدة ، الموروثة من عصور التخلف الحضاري للمسلمين... وتيار التقاليد الوافدة ، الذي غزانا من الغرب. وواجب المسلمة أن تتحرر من العبودية لتيار التشدد القديم أو تيار التسيب الجديد.

❋ ❋ ❋

المرأة في ضوء تيار الوسطية :

و « تيار الوسطية الإسلامية » الذي نؤمن به وندعو إليه ، يريد للمرأة أن تخرج من سجنها الذي حبست فيه ظلماً في بلاد شتى ، على تفاوت بينها ، فقد كانت المرأة في الريف أقرب إلى فطرة الإسلام ونقائه. كما يريد لها أن تقوم بدورها مع الرجل ، في نصرة الإسلام ، ونشر دعوته ، وتحرير أمته ، وتبليغ رسالته إلى العالم.

وهذا مسلّم به من الناحية النظرية ، ولكن الآفة تكمن في الجانب العملي ، فلا زال كثير من المتدينين ينظرون إلى المرأة نظرة تشوبها الريبة والمخاوف ، وتطاردها الأوهام ، وسوء الأفهام ، وكأنما الدين ونصرته مسؤولية الرجل وحده ، وليس للمرأة فيه نصيب

لقد اهتمت الحركة الإسلامية بالمرأة منذ فجر الدعوة ، وأنشأ الإمام حسن البنا قسم « الأخوات المسلمات » ليقوم بدوره في نشر الفكرة بين المسلمات ، وتربية جيل منهن يحمل العبء مع الرجال من « الإخوان المسلمين » في التمكين لدين الله في الأرض.

وقد قام القسم بدوره إلى حد لا بأس به ، وكان للأخوات نصيبهن في أيام المحن ، وخصوصاً في رعاية أسر المسجونين والمعتقلين وإيصال المعونات إليها ، على ما في ذلك من خطر يتهددهن من رجال « المباحث ». ومنهن من قاست ما قاست في سبيل الله مثل الأخت زينب الغزالي.

❋ ❋ ❋

قصور العمل الإسلامي في المجال النسوي :

ولكن يجب أن نعترف بأن العمل النسائي لم يبلغ إلى المستوى الذي ينبغي أن يصل إليه ، وإن انتشرت الدعوة في صف النساء ، ولا سيما الطالبات في الجامعات والثانويات.

فلم تظهر إلى اليوم - برغم مرور ستين عاماً على الحركة - قيادات إسلامية نسائية قادرة - وحدها - على مواجهة التيارات العلمانية والماركسية بكفاية واقتدار.

وذلك لأن الرجال يحاولون دائماً أن يسيطروا على توجيه النساء ، ولا يدعون لهن الفرصة الكافية للتعبير عن أنفسهن ، وبروز المواهب والقدرات النسائية الخاصة ، لتقود العمل بمعزل عن تحكم الرجال.

❋ ❋ ❋

متى ينجح العمل الإسلامي النسوي :

ورأيي أن العمل الإسلامي النسوي إنما ينجح ويثبت وجوده في الساحة يوم يفرز زعامات نسائية إسلامية ، في ميادين الدعوة والفكر ، والعلم والأدب ، والتربية.

وما أحسب هذا بالأمر المتعسر أو المتعذر ، ففي الأخوات نوابغ وعبقريات مثل الرجال ، وليس النبوغ من صفات الذكور وحدهم ، وليس عبثاً أن يقص علينا القرآن قصة امرأة قادت الرجال بحكمة وشجاعة ، انتهت بقومها إلى أفضل عاقبة ، وتلك هي ملكة سبأ التي حدثتنا عنها سورة النمل في قصتها مع سليمان عليه السلام.

وقد رأيت في جامعة قَطر البنات أكثر تفوقاً من البنين ، وهذا ما لاحظه غيري من أساتذة الجامعة ، وبخاصة أن البنات أكثر تفرغاً للعلم من الذكور الذين تشغلهم أشياء كثيرة ، وعندهم سياراتهم التي يستقلونها ليذهبوا بها هنا وهناك.

❋ ❋ ❋

تسرب الأفكار المتشددة في هذا المجال :

وأود أن أقول هنا بصراحة : إن العمل الإسلامي قد تسربت إليه أفكار متشددة غدت هي التي تحكم العلاقة بين الرجال والنساء ، وتأخذ بأشد الأقوال تضييقاً في هذه المسألة.

وهذا ما لاحظته في كثير من المؤتمرات والندوات ، حتى في أوروبا وأمريكا ، ففي أواسط السبعينات ظللتُ أحضر لعدة سنوات المؤتمرات السنوية لاتحاد الطلبة المسلمين بالولايات المتحدة وكندا ، وكان يحضر الإخوة والأخوات ، ويشهد الجميع المحاضرات والندوات العامة ، ويسمعن التعليقات والأسئلة والأجوبة والمناقشات حول القضايا الإسلامية الكبيرة : فكرية وعلمية واجتماعية وتربوية وسياسية. إلا حلقات فقهية خاصة تُعقد للنساء للإجابة عن تساؤلات خاصة عندهن.

ولكني في الثمانينات حضرتُ عدداً من المؤتمرات في أمريكا وأوروبا ، فوجدت فصلاً تاماً بين الجنسين ، ووجدت الأخوات يُحرمن من قسم كبير ومهم من المحاضرات والمناقشات والندوات التي تُعقد عند الرجال ، وقد شكا إليّ بعض الأخوات مللهن من المحاضرات التي تدور كلها حول قضايا المرأة وحقوقها وواجباتها ومكانتها في الإسلام ، وهي قضايا تكررت حتى أصبح الحضور لسماعها كأنه عقوبة !!

وقد أنكرتُ هذا في أكثر من مؤتمر حضرته ، وقلت : إن الأصل في العبادة ودروس العلم هو الاشتراك ، ولم يُعرف في تاريخ الإسلام مسجد للنساء وحدهن مستقلاً عن الرجال.

وقد كان النساء يشهدن الدروس النبوية - كما يشهدن الجمعة والجماعة والعيدين - مع الرجال ، ويسألن في أخص الأمور المتعلقة بالمرأة ، ولم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين ، كما قالت عائشة رضي الله عنها.

وكتب السنّة حافلة بكثير من الأسئلة التي وُجهت من النساء إلى النبي ﷺ ، منهن من سألت لنفسها ، ومنهن من سألت باسم بنات جنسها ، قائلة : أنا وافدة النساء إليك يا رسول الله.

وقد طلبن من الرسول ﷺ أن يجعل لهن يوماً خاصاً ، ينفردن به دون الرجال ، ليكون لهن فسحة من الوقت والحرية ، ليسألن عما يشأن دون حرج من آبائهن أو إخوانهن أو أزواجهن ، أو غيرهم من الرجال.

وهذه مزية أضيفت لهن إلى جنب الدروس العامة التي يشتركن فيها مع الرجال.

مشكلة العمل الإسلامي في المجال النسوي :

مشكلة العمل الإسلامي النسوي : أن الرجال هم الذين يقودونه ، ويوجهونه ويحرصون على أن يظل زمامه بأيديهم ، فلا يدعون فرصة للزهرات أن تتفتح ولا للقيادات أن تبرز ، لأنهم يفرضون

أنفسهم فرضاً ، حتى على الاجتماعات النسوية ، مستغلين حياء الفتيات المسلمات الملتزمات ، فيكتمون أنفاسهن ولا يتيحون لهن قيادة أمورهن بأنفسهن ، فتبرز منهن مواهب يفرزها العمل وتصهرها الحركة ، وتنضجها التجربة والكفاح ،وتتعلم من مدرسة الحياة والممارسة بما فيها من خطأ وصواب.

كما أن الأخوات المسلمات لا يعفين من بعض التبعة ، فقد استسلمن لهذا الوضع ، ورضين بحياة الدعة والسكون ، وأن يفكر لهن الرجال بدل أن يفكرن لأنفسهن ، وينبغي أن يأخذن زمام المبادرة ، ويفتحن ميادين الدعوة والعمل ، ويخرسن الأصوات النسوية الغريبة الدخيلة على عقائد هذه الأمة وقيمها وشرائعها ، وهي أصوات عالية ، وإن لم تمثل إلا قلة مسحوقة لا وزن لها في دين ولا دنيا !

حضرتُ في أحد الأعوام في حي جامعي للطالبات في الجزائر العاصمة لإلقاء محاضرة عليهن ، وفتح باب الحوار - كما هي العادة - والرد على ما يقدمنه من أسئلة تحريرية أو شفهية ، وكان بعض الشباب حاضراً فبدأ هو يتلقى الأسئلة ويفرزها ، فيأخذ منها ويدع ، فقلت معترضاً : لماذا لا تقوم بهذا إحدى الطالبات ، نيابة عن زميلاتها ؟؟

لماذا (تحشرون) أنفسكم أيها الرجال في أمر النساء ؟؟ ارفعوا أيديكم عن الأخوات ، ودعوهن يتصرفن كما يحلو لهن ، ويستقبلن الأسئلة ويخترن منها المناسب في تقديرهن ، وتقوم إحداهن بقراءتها.

وكأني بهذه الكلمة أزحت هماً ثقيلاً عن صدور الفتيات المؤمنات فتنفسن الصعداء ، وتقدمت إحداهن لتقوم بالدور الذي كان يقوم به أحد الإخوة المرافقين لي.

وقد حدث مثل هذا في عام آخر في مدينة مانشستر في بريطانيا حيث عُقد مؤتمر الطلبة المسلمين هناك ، فقد كانت لي محاضرة للأخوات ، وأسئلة بعد المحاضرة ، تولى استقبالها وفرزها وتنظيمها أحد الشباب الطيبين. ولكني قلت للأخ بصراحة : إن وجودك هنا لا مبرر له ، وكان الأولى أن تقوم إحدى الأخوات بهذا الأمر ، وهن أحق به وأولى ، ولكن الأخ الصالح قال : إنه مكلف بهذا العمل حسب النظام ، ولا يستطيع التخلي عنه ، وهو معذور حقاً.

وشيء آخر شكا إليّ منه كثير من الأخوات في مصر وفي الجزائر ، وهو أن الأخت الداعية النشيطة المتحركة ، قبل الزواج ، بعد أن تتزوج أخاً ملتزماً ممن عرفته عن طريق الدعوة ، يفرض عليها العزلة ، ويمسكها في البيت ، ويحرمها من المشاركة في الحركة ، ويطفئ تلك الشعلة التي كانت تضيء الطريق لبنات الإسلام. حتى كتبت إليّ فتاة جزائرية تعمل في حقل الدعوة ، تسألني : هل يحرم عليها أن تضرب عن الزواج وترفضه من حيث المبدأ ، حتى لا ينتهي بها الأمر ، كما انتهى بأخوات

لها ، إلى حياة الخمود والكسل والبعد عن ميدان الحركة والعمل ، في حين تعمل الشيوعيات والعلمانيات والمتحللات ؟!

❋ ❋ ❋

اعتراض وجوابه :

سيقول المتشددون : كيف تطلبون من المرأة المسلمة أن يكون لها دور بارز في الحركة الإسلامية ، وأن تتحرك وتقود وتثبت وجودها في موكب العمل الإسلامي الزاحف ؟ وهي مأمورة بالقرار في بيتها بنص القرآن الكريم : { **وَقَرْنَ فِي بيوتكنَّ ولا تَبَرّجْنَ تَبَرّجَ الجاهلية الأولى** } [الأحزاب:٣٣].

وجوابي لهؤلاء الإخوة الغيورين : إن الآية خطاب لنساء النبي ، وهؤلاء لهن من الخصوصية ما ليس لغيرهن ، وعليهن من التغليظ ما ليس على سائر النساء ، وقد قال تعالى في خطابهن : { **يا نساءَ النبيّ لستُنَّ كأحدٍ من النساء** }[الأحزاب:٣٢].

ومع هذا لم تمنع هذه الآية عائشة أم المؤمنين من الخروج في معركة الجمل. تطالب بما تعتقده حقاً في شؤون السياسة ، ومعها من كبار الصحابة رجلان رُشحا للخلافة ، وهما من العشرة المبشرين بالجنة.

وما رُوي من ندمها على هذا الموقف ، فليس لأن خروجها من بيتها لم يكن مشروعاً ، بل لأن رأيها في السياسة جانبه التوفيق ، غفر الله لها ورضي عنها.

على أننا لو أخذنا برأي من يقول : إن الآية لعموم النساء ، فإنها لا تعني إمساكهن في البيوت لا يخرجن منها ، فإن هذا الإمساك ذكره القرآن عقوبة لمن ترتكب الفاحشة ، ويشهد عليها الشهود الأربعة ، وذلك قبل استقرار التشريع على الحد المذكور في القرآن والسنّة ، قال تعالى : { **واللاتي يأتينَ الفاحشةَ من نسائكم فاستشهدوا عليهنّ أربعةً منكم فإن شهدوا فأمسكوهنّ في البيوت حتى يتوفاهنّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً** }[النساء:١٥].

ثم إن قوله تعالى في الآية : { **ولا تَبَرّجنَ تَبَرّجَ الجاهلية الأولى** }[الأحزاب:٣٣] يدل على مشروعية الخروج المحتشم غير المتبرج ، فالمرأة لا تُنهى عن التبرج داخل بيتها ، فإن لها أن تلبس وتتزين فيه ما شاءت ، إنما تُنهى عنه إذا خرجت إلى الطريق أو السوق أو غير ذلك ، مما هو مظنة التبرج.